مجمع الشيخ الأنصاري للقرآن الكريم وعلومه (2-4)

يسدل ظلاله على اهتماماته وعطاءاته أثناء حياته

أولاً: معهد الشيخ إبراهيم الأنصاري رحمه الله للدراسات الإسلامية

وهو فرع من فروع المجمع له عطاؤه القرآني الدعوي، ومساره التربوي، وعنايته بالمسلمات، حيث تأخذن من الدين ما يعينهن على حمل رسالتهن، وتحمل عبء البناء السليم داخل الأسرة وخارجها، بما زودن به من القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف، وغير ذلك من العلوم الشرعية.

ولكن من هو ذلكم الذي أُعْلِيَ المعهد باسمه؟

في قرية من قرى فارس (قرية جفر مسلم) وفي السابع من رجب 1298هـ الموافق الخامس من يونيو عام 1881م وُلِدَ حفيد من أحفاد الأنصار الذين آووا ونصروا، يرجع نسبه إلى التابعي الجليل سعيد بن قيس بن سعد بن عبادة، فهو ساعدي خزرجي من بني كعب، ولكن من هو هذا الحفيد؟

إنه الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأنصاري، كان مولده في أسرة طيبة في هذه القرية وقد اتجه به والده إلى حفظ القرآن الكريم، ولم يكد يحفظ ما تيسر له من الكتاب العزيز، حتى تجلَّى شغفه بالعلم، ولكن شاء الله تعالى أن يموت الوالد، والصبي في التاسعة أو دونها، فاعتبرت الأم رغبة الأب أمانة عليها الوفاء بها، فواصلت المسيرة الوضيئة المضيئة مع الصبي وكانت خير حافز له وأكبر عون، وحين طار به طموحه إلى قرية (جناح) حيث المحفظون أكثر وأعظم خبرة، فضلاً عن وفرة علمائها لم تتردد الأم في السماح لولدها بالسفر، وفي هذه القرية ختم القرآن الكريم، وتقلب بين حلقات العلماء، فعاد إلى (جُفَر مسَلّم) بكتاب الله تعالى، وما أفاء الله عليه من العلم، وعاش في قومه يُقْرِئُ ويُعَلِّم، ويتزود هو بما استطاع من العلم، ولكن همته كانت أعلى، وطموحه كان أسمى فأبحر إلى (دبي)، ولم يطب له المقام بها فعزم على الرحيل إلى البحرين أو قطر وركب البحر هو وجماعة معه وهنا يتدخل القدر لتحديد الوجهة، فتهب عليهم ريح عاصفة تلجئهم إلى ساحل قطر، لتكون الخور منزلهم، فتوجهوا إلى رئيس القرية، وكان يدعَى: عيسى بن عليٍّ الإبراهيم الذي أحسن استقبالهم، ودعاهم إلى العشاء، ويؤكد القدر أنَّ المقرَّ قطر، وأن الله جل شأنه قد قدَّر له مقاماً، وأهلاً كراماً في هذا البلد الطيب، حيث أُذِّنَ للمغرب فانساب الناسُ إلى المسجد، فَقَدَّم رئيس القرية الشيخ إبراهيم للإمامة، مع صغر سنه فأعجب الجميع بإمامته وتلاوته، وارتضوه إماماً لهم في صلواتهم، ولحكمة أرادها الله تعالى، وسماتٍ فطر الله عليها ذلك الشيخ الفتى التف حوله الشباب، وأنس به الشيوخ، وصار منهم، وشاع التنافس في حفظ الكتاب العزيز، وتنقل الشيخ بين المجالس مقدَّراً محتفىً به، وتحدثوا عنه إذا غاب، وانقضت ثلاث سنوات كاملة كأنها غفوة سعيدة هانئة، أو خطوات مطمئنة راضية في أسرةٍ كبيرة هي (الخور)، فألَحُّوا عليه بالزواج، واختاروا له كريمة نقية طيبة تقية، تُدْعَى في قومها (بالمطوعة)، وهي فاطمة بنت محمد المسعودي وعاونوه بالمال ومطالب الزواج، وتهيأ للزوجين السكن، وأظلتهما مودة ورحمة، غير أن العظماء لا يشغلهم واجبٌ عن واجب، ولا يلهيهم الوفاء بحقٍّ من الحقوق عَمَّا سواه، والعلم مرشدٌ أهله ناصحٌ ذويه.

إن للشيخ أمَّاً وأهلاً في فارس، وفي فارس منارات علم شامخة، يعمرها، ويضاعف نورها علماء أخلصوا العمل لله، وآثَرُوا رضوانه، أفاء الله عليهم، وأودع القلوب محبتهم، فكانوا مقصد طالبي العلم من الخليج وغيره، مع وفرة طلابهم من بلاد فارس فأزمع الرحيل، فركب إلى دبي ومنها إلى لنجة تلك القلعة العلمية الشامخة المطلة على الساحل الشرقي الفارسي، مِسْحَتُهَا عربية، وطبيعتها سلفية، وهي موطن أهل السنة والجماعة ومرجعهم في ذلك الحين، ولم يكد ينزل هذا البلد حتى سأل عن عالم ذاع صيته، واشتهر علمه وفضله، وقد عُرِف (بسلطان العلماء) فأرشد إليه، فلزم صحبته، واستوطن مجلسه، وكان الشيخ فطناً لبيباً، ودوداً عطوفاً، يألف ويؤلف، وقد رأى في الشيخ إبراهيم ما يميزه، وأحس في طلبه للعلم ما يقدمه، فأدناه وقدمه، وأحسن رعايته وأكرمه، فأنساه علمُ شيخه وفضلُهُ، وكريم عنايته به الأهل والمقصد الذي رحل إلى فارس من أجله، فمكث حيناً في رحاب هذا الشيخ، ثم استأذنه في زيارة والدته وأهله، فأذِن له ثم قال له:

(سوف ترجع إن شاء الله، وتدرك الخير، وأخِّر الزواج إلى العام المقبل)

وما كان الشيخ إبراهيم حدث سلطان العلماء ولا غيره عن رغبته في الزواج وإذا بهذه العبارة تجري على لسان أستاذه مما ضاعف ثقته بالشيخ، وإيمانه بكرامته وحسن فراسته، فذهب الشيخ إبراهيم إلى (جفر مسلم) حيث لقي والدته وأخاه وعشيرته، فمكث فيهم عشرة أيام، ثم عاد إلى (لنجة)، فنهل من العلم، فرآه الشيخ أبرز طلابه، فقال لطلابه: (إذا أُشْكِل عليكم معنى فاسألوا مُلاَّ الأنصاري)، وكانت هذه كما يقول الشيخ إبراهيم الأنصاري (هدية كبرى لي) مكث في الدراسة بعد ذلك سنةً ونصف السنة، واستأذن في السفر إلى (جفر مسلم) فقال له سلطان العلماء: (إن شاء الله موفق، وتتزوج بامرأة صالحة، وتنجب منها وتقرُّ به عينك، وينفعك في الدنيا والآخرة، ويحيى ذكرك) فكانت بشارة من عبد صالح، وتزوج ثم عاد إلى (لنجة) بعد ثلاثة أشهر، فمكث بها أربعة أشهر ثم عاد، ومعه كتبه ووصايا شيخه، وقد أباح له الإفتاء، وأحال إليه أستاذه بعض حالات التحكيم، وعكف على تعليم القرآن الكريم، فمكث ست سنوات حتى أذن الله تعالى له بالرحيل إلى الخور، وكانت قطر الوطن والمقر...

سافر من بندر مغوه عام 1344هـ إلى دبي حيث بقي بها ثلاثة أشهر، ورجع إلى لنجة أياماً يسيرة أوصل فيها أهله إلى (جفر مسلم) ثم توجه إلى البحرين، وفي اليوم الثاني ذهب إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة فأحسن استقبال الشيخ، ودعا له، وأكرم وفادته ، ثم عاد إلى الخور، فتلقاه أهلها بالبشر والترحاب، وفي نفس العام تزوج، وصارت الخور موطناً وإقامة، له فيها صهر ونسب، وكان قاضيا بها، وكانت الخور آنذاك بمثابة العاصمة الثانية لقطر بعد الدوحة، تتبعها قرى وبلدان عامرة بالناس من مختلف القبائل، وكان يعمل قاضياً بلا راتب، ولم يتطلع هو إلى ذلك، تحال إليه القضايا من حاكم قطر الشيخ قاسم بن ثاني، ثم الشيخ عبد الله بن قاسم ثم الشيخ حمد بن عبد الله رحمهم الله فيفصل فيها، وأعجب من ذلك أنه كان كثيرا ما يتحمل الحقوق عن غير القادرين من ماله إذا ثبت عجزهم، وربما ساهم بجزء حسب مقتضى حال المدين.

كان كثيراً ما تأتيه المسائل المعقدة، فلا يبرم فيها رأيًا إلا بعد التأكد مع ما آتاه الله تعالى من فقه، وما هيأ له من توفيق، وبقي الشيخ طيلة حياته قاضيا للشمال من دولة قطر، وكانت له مواقف جلية تؤكد صواب آرائه الفقهية على مذاهب أهل العلم لا على مذهبه فقط، ووفقه الله تعالى لحلِّ معضلات في المواريث وغيرها في مجلس واحد، أدهشت براعته علماء حُمِلت إليهم فتاواه في شبه الجزيرة العربية والأزهر الشريف بمصر، مما وثَّق الصلة بينه وبين هؤلاء العلماء وجعله محل ثقة، وصاحب صدارة في الفتوى، ومرجعاً إذا تعقدت الأمور، واستعصت المسائل.

لقد أحصى له معاصروه قضايا شهد له بها العلماء، وأقرَّ رأيه فيها الفقهاء، وما نحن بصدده من إيجاز لا يتسع لذكر شيء منها...

ولم يشغله موقعه كقاضٍ، ومرجع في الإفتاء ومقصد للضيوف وذوي الحاجات عن عمل هو الأول في نهضة الأمم، والسر في صنع حضارتها، ونشر الكفاءات في مواقع العمل بها، ألا وهو التربية، وهو أمر لا ينهض به إلا خبير، وقد استمد منذ صباه كثيراً من خبرات شيوخه وأساتذته، وأضيف إلى ذلك مواهب وقدراته الخاصة، وما فطره الله تعالى عليه من براعة في التعليم ونجاح في التربية وقدرة على احتواء من يربِّي، وقد كان التعليم النظامي لم يعرف بعد في قطر، فقامت مدارس تدرس إلى جانب القرآن الكريم تعليم القراءة والكتابة وما يناسب مستوى الدارس من علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، وكذلك مبادئ الحساب، وكادت هذه المدارس تقتصر على المدن والقرى الكبيرة، وقد تميزت بوجود مكان مخصص لها، واشتهرت كل مدرسة باسم القائم عليها، وكان عددها خمس عشرة مدرسة منها إحدى عشرة مدرسة بالدوحة، ومدرسة بالوكرة وأخرى بالخور (هي مدرسة الشيخ إبراهيم الأنصاري) وثالثة في الذخيرة ورابعة في الظعاين، وكان من تلاميذه في مدرسة الخور من أثبتوا كفاءة، وكان لهم دورٌ بارز في مجالات النهضة عامة والتربية خاصة، وكفى تلك المدارس شرفاً أنها كانت القواعد الأولى التي قامت عليها التربية حين بدأ التعليم النظامي.

وهو إلى جانب ما ذكرت، وما لا يتسع المجال لذكره أول من برع في علم الفلك في قطر، وخلصه مما علق به من تنجيم، وأخرجه مصفًّى نافعاً وهو أول من كتب التقويم القطري بيده، وعنه نقل ولده وتلميذه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمهما الله.

فإذا حمل اسمه صرح من صروح (مجمع الشيخ الأنصاري للقرآن الكريم وعلومه) وهو معهد الشيخ إبراهيم الأنصاري رحمه الله للدراسات الإسلامية) فذلك أقل القليل من حقوقه علينا، وفاءً لمن وفَّى للإسلام والمسلمين عامة، ولقطر الخير والعطاء خاصة.

ذلكم الرجل الذي لا يزال جامعه بالذخيرة والذي أقيم منذ 130 عاماً تقريباً، وهو أول جامع أقيم في قطر ... لا يزال مزاراً سياحياً، ومعلماً من معالم سبقها وتميزها.

رحمه الله تعالى، وبارك وطنا احتضنه، وبارك جهوده واعتز بها.

■ المدير العام
لمجمع الشيخ الأنصاري للقرآن الكريم وعلومه
د/ محمد بن عبد الله الأنصاري
(أبو عمر)